القادة الأبرار

الرسول الأعظم محمد (ص)

القادة الأبرار

الرسول الأعظم محمد (ص)

شبكة الفكر
alfeker.net

الرَسول الأعظم محمد (ص)

القَادَة الأبْرَار

الرَّسول الأعْظم محمّد (ص)

الدار الاسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثانية
١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م

كورنيش المزرعة / بناية الحسن سنتر / الطابق الثاني
هاتف ٨١٦٦٢٧ / ص . ب : ١٤٥٦٨ تلكس ٢٣٢١٢ - غدير
فرع ثاني / حارة حريك مفرق الحلباوي / هاتف ٨٣٥٦٧٠

الرسول الأعظم محمد (ص)

الاسم : محمد (ص)

اسم الأب : عبد الله.

اسم الأم : آمنة

تاريخ الولادة : عام الفيل

محل الولادة : مكة

تاريخ الوفاة : السنة الثالثة عشرة للهجرة

محل الوفاة : المدينة

محل الدفن : المدينة.

بسم الله الرحيم الرحيم

عام الفيل

قبل الهجرةِ باثنتين وخمسين سَنةً، توجَّهَ أَبْرهَةُ الأشرمُ من اليمنِ بجيشٍ كبير، عمادُه محاربونَ يركبون الفِيلَةَ، توجَّهَ نحو مكَّةَ لتدميرِ بيتِ الله. وقامَ في طريقِهِ إلى مكةَ بالقضاءِ على كلٍّ من حاولَ الوقوفَ في وجهِه.

وصلَ جيشُ أبرهةَ إلى ضواحي مكة، وكانَ الوقتُ ليلاً، فأقامَ مُعَسْكَرَهُ هناك في انتظارِ الصّباحِ ليشرَعَ في هُجومِهِ، بينما سارَعَ أهلُ مكَّةَ إلى الجبالِ هرباً منه، وأَسْلموا الكعبةَ إلى الله، فهو سُبحانَهُ الكفيلُ بالدِّفاعِ عنها، فَهيَ أوَّلُ بيتٍ أُقيمَ في الأرضِ لعبادَتِهِ تعالى.

وفي الصَّباحِ الباكرِ. شرعَ المقاتلونَ بِهجومِهِم على الكعبةِ، يَتقدَّمُهم رُكّابُ الفِيَلَةِ، وفجأةً ظهرتْ في السَّماءِ أسرابٌ هائِلةٌ من الطُّيورِ، تَحمِلُ في مناقيرِها حِجارَةً صغيرةً، قامَتْ بإلقائِها فوقَ رؤوسِ أبرهَةَ ورجالِه، ارتفع صُراخُ العسكرِ وتعالى أنينُهُم وتَوجُّعُهم، وبدأوا يتساقَطون، الرّاكبُ منهم والرّاجلُ، الحصانُ وفارِسُه، الفيلُ وراكبُ الفيلِ، تساقطوا فوقَ بعضِهم أكواماً من الجُثثِ، وهكذا قضى الإلهُ القديرُ على أعدائِهِ المارقين. وكان هذا الحدثُ العجيبُ وراءَ تسميةِ تلكَ السَّنةِ بـ «عامِ الفيلِ»، العامِ الذي تَمَّ فيهِ القضاءُ ـ وبإرادةِ العليِّ القديرِ ـ على فِيَلَةِ الحربِ وركّابِها، بحجارةٍ صغيرةٍ اخترقتْ أجسادَهم، وحَفِظَ اللهُ بيتَه من عُدوانِ المُعتدين.

محمد الأمين :

في ذلك العامِ «عامِ الفيل» وُلِدَ الرَّسولُ الأكرمُ، لِأُمِّهِ آمِنةَ بنتِ وَهَب. وكانتْ آمنةُ سَليلةَ بيتِ الكرمِ والشَّرفِ، وقد اشْتُهِرَتْ بالسُّمعةِ الطَّيِّبةِ والطَّهارَةِ

والعَفـافِ، أمّـا أبـوه فكـانَ يُـدعى عبـدَ الله، الابنُ المحبوبُ من أبيه عبدِ المطَّلبِ (جَدِّ الرّسـولِ)، وسيِّدُ قـومـهِ، ومَـوْضِـعُ اعتـزازِهِم واحتِـرامِهم. وقـد فـارقَ عبـدُ الله الحياةَقَبْلَ وِلادةِ الـرَّسولِ الأكْـرمِ (ص)، أمّـا آمِنةُ فقد انتقلتْ إلى رحمةِ ربِّها بعدَ ولادتِه (ص) بِستِّ سنواتٍ، فكَفِلَهُ جدُّهُ عبدُ المطَّلبِ، وعَهِدَ بهِ إلى امـرأةٍ عفيفةٍ شريفةٍ، اسمُها حَليمةُ السَّعديَّةُ، لتقومَ بإرضاعِـه ورِعايتِهِ، وقد تُوُفِّيَ عبدُ المُطَّلبِ بعـدَ عامَيْنِ، فـأخذَهُ عَمُّه أبو طالبٍ إلى بيتِهِ، وتَكفلَّ برعايتِهِ وتَرْبيتِهِ.

كـانَ أبو طـالبٍ يَتعاطى التجـارةَ، وكانَ من عـادةِ تُجّـار مكَّةَ أن يَخـرُجوا بِتجـارتِهم إلى الشّـامِ مَـرّةً في السَّنةِ، ؛ وقد رافقَ مُحمَّـدٌ (ص) عمَّـهُ أبـا طـالبٍ في إحدى رَحَلاتِهِ إلى الشّامِ.

عَرَفَ الجميعُ عنْ مُحَمدٍ (ص) أمانَتَه واسْتِقامَتَـه، حتى اشْتُهِـر بينَهم بـ«مُحمَّـدٍ الأمين». ولمّـا عَلِمتْ خَديجةُ باسْتِقامتِهِ وأمانتِهِ، وكانتْ منْ أشرَفِ نساءِ مكَّـةَ وأكثرِهِنَّ ثَراءً، سَلَّمتهُ أعمالَها التِّجاريَّةَ، فاكْتَسَبَ خِبرَةً

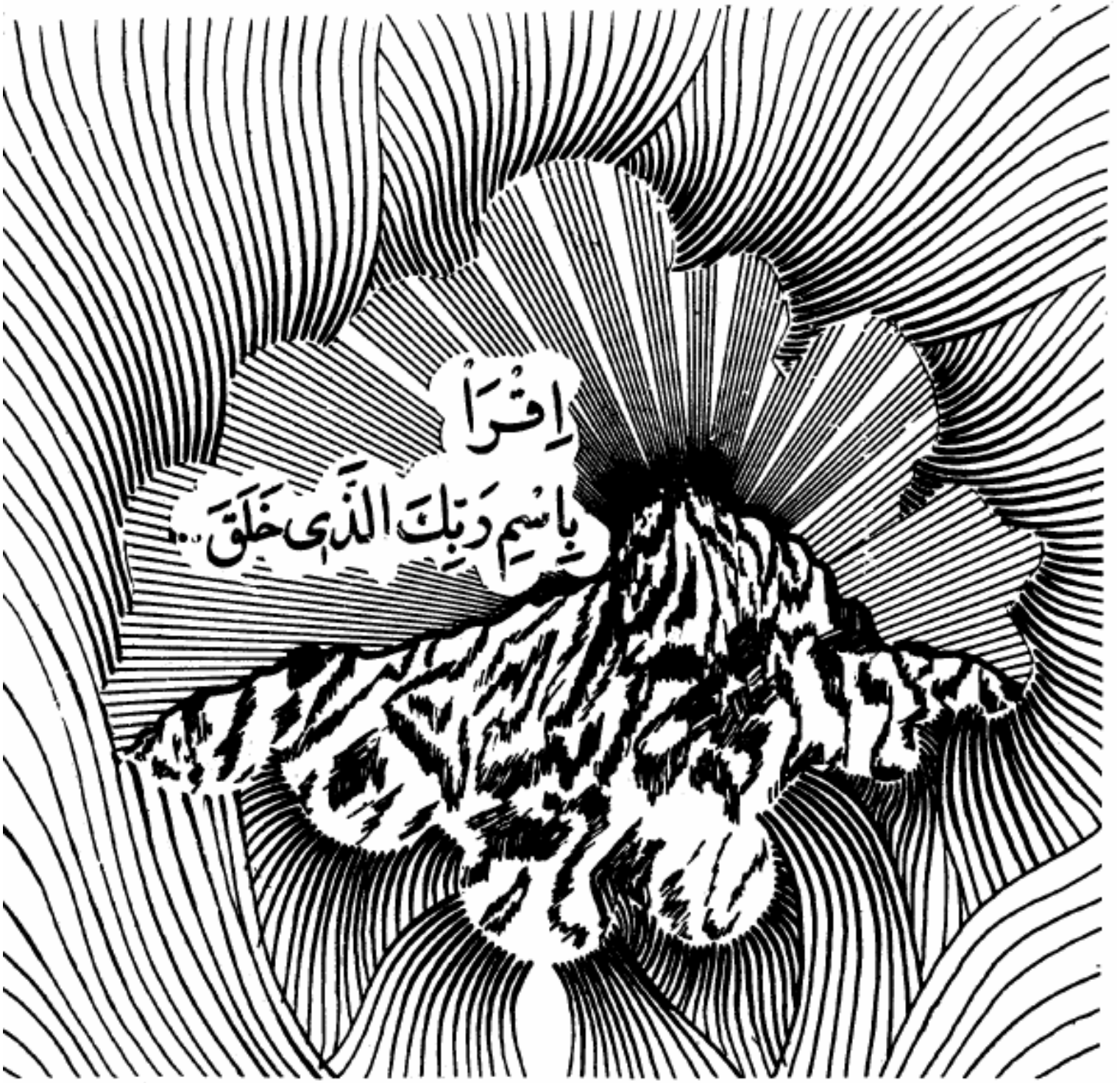
اِقْرَأْ
بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ..

واسِعَةً بِطُرُقِ وأُصولِ التِّجارةِ، ثُمَّ ما لَبِثَتْ أنْ أحَبَّتْ أخلاقَهُ وعِزَّةَ نفسِهِ، فتَزوَّجتْ منه، ووَضعتْ بينَ يديهِ وفي تَصَرُّفِهِ، كامِلَ ثروتِها وأعمالِها..

فقام (ص) مُستعيناً بِقوَّةِ شبابِهِ وإرادتِه، وما وَفَّرَتْهُ له زَوجتُه من إمكانِيّاتٍ، قامَ بمساعدةِ المظلومين، ومَدِّ يدِ العَوْنِ إلى الفقراءِ المُستَضعَفين.

رُزِقَ (ص) من خديجةَ بستَّةِ أبناء: وَلَدينِ أسماهُما قاسماً وعبدَ الله، وقد توُفِّيا صغيرين قبل بعثَتِه (ص)، وأربعِ بَناتٍ هُنَّ رُقَيَّةُ وزينبُ وأُمُّ كُلثومٍ وفاطمةُ (ع). وكانَ (ص) كثيرَ الصَّبرِ عَظيمَ الجلَدِ، فلمْ يَبْدُرْ منه أيُّ إحساسٍ بالضَّعْفِ لِموتِ وَلديه، بَلْ تَقَبَّلَ قضاءَ اللهِ وحُكْمَهُ بالرِّضى والإقرار.

كان (ص) يَتَمتَّعُ باحترامٍ شَديدٍ بينَ النّاسِ، وكانوا يَرجِعون إليه لِيساعِدَهُم في حَلِّ مشاكِلِهم، وكانوا يَثِقونَ بهِ ويَعْتَمِدونَ عليه، وَيودِعونَ لديهِ أماناتِهِم، ولم تُعَرفْ عنهُ كِذْبةٌ واحِدةٌ، لِأنَّهُ كانَ رَجُلاً صادِقاً مُؤمِناً. ﴿وإنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظيمٍ﴾(القلم ـ ٤).

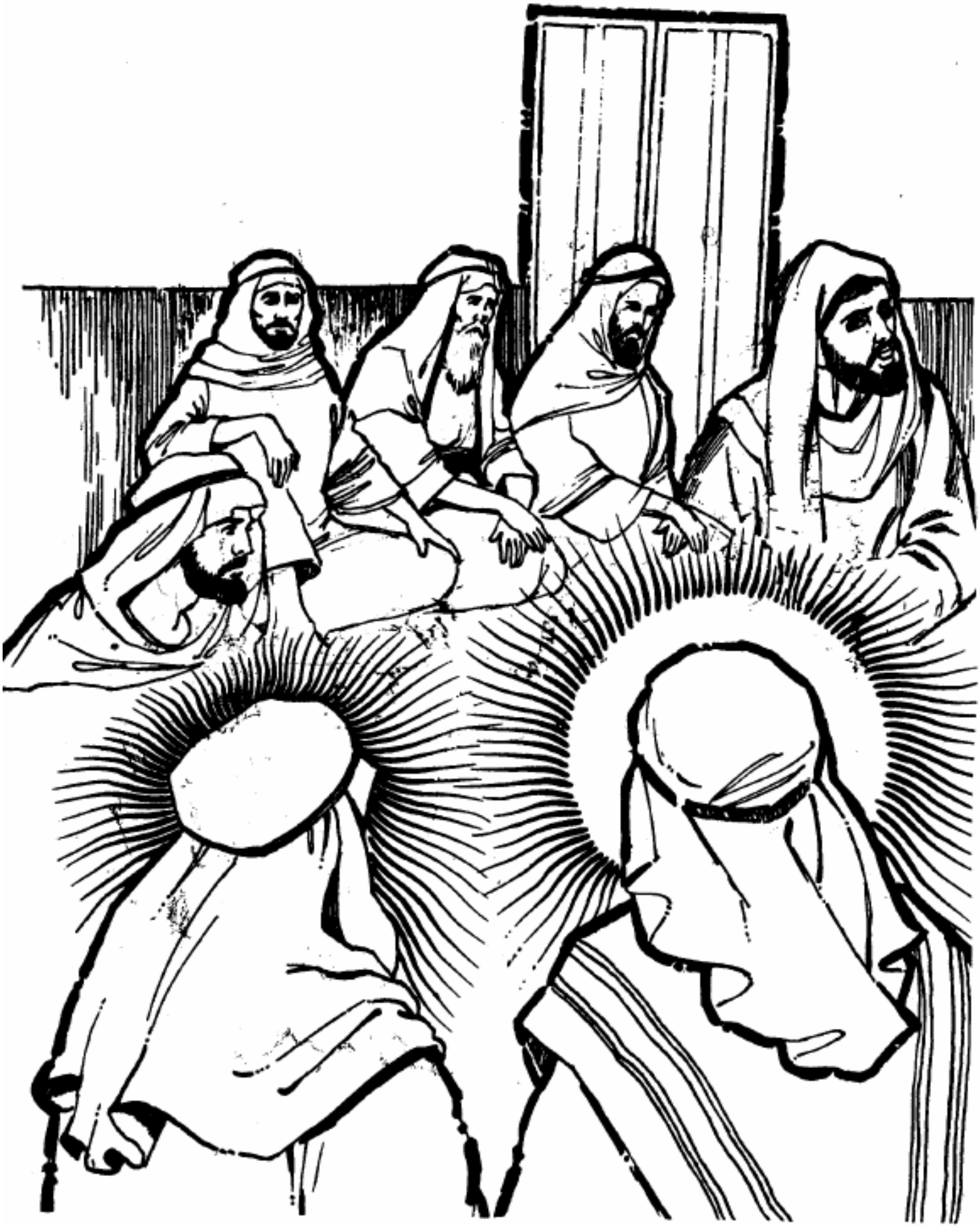

كانَ النّاسُ في تِلكَ الأيّامِ يَعبُدونَ الأَصْنامَ، بينما كانَ هُوَ يَعبُدُ اللهَ الواحِدَ الأَحَدَ، مِلَّةَ جَدِّهِ إبراهيمَ الخليلِ (ع)، وكانَ يَقضي مُعْظَمَ وقتِهِ يَتَعَبَّدُ في غارِ حِراءٍ، وهو غارٌ يقعُ على قِمَّةِ جبلٍ في شَمالِ مكَّة. وكانَ يَذهبُ خِفْيَةً إلى هناك، فيقضي شهرَ رَمضانَ بكامِلِهِ، يُصلّي ويعبُدُ رَبَّهُ ويناجيه.

البعثة :

في السابعِ والعشرينَ من شهرِ رجبٍ، وكانَ (ص) كَعَهْدِهِ دائماً مشغولاً بِعبادَتِهِ في الغارِ، وإذا بِجبرائيلَ ـ ملاكِ الرَّحْمانِ ـ يَظهرُ أَمامَهُ، وما إنْ تَطَلَّعَ إليهِ حتى بادَرَه قائلاً: ﴿اِقرأْ﴾!!. لكنَّ محمداً (ص)، والّذي لم يكنْ قد تلقّى أيَّ تعليمٍ، وهو لا يُحسِنُ القراءةَ أو الكتابَةَ، أجابَ مُتعَجِّباً: وماذا أَقرأُ؟ فأنا لا أُحسِنُ القِراءةَ! قال جِبرائيلُ مكَرِّراً أَمرَهُ: «اِقْرأ!!» لكنَّهُ وللمرَّةِ الثّانِيَةِ سمعَ الرَّدَّ نفسَه، وحين كَرَّرَ قولَهُ للمرَّةِ الثالِثَةِ، أَحَسَّ محمدٌ (ص) أَنَّ باستطاعَتِهِ أن يقرأ. ﴿اِقرأْ باسْمِ ربِّكَ الّذي خَلَقَ﴾.

وهكـذا اخْتارَ اللهُ سبحـانَهُ محمـداً (ص) للنُّبُـوَّةِ، وهو في سِنِّ الأَربعينَ، وكَلَّفَهُ بأن يَقومَ بِهدايَةِ النّاسِ، وإخْـراجِهِم من الظُّلُمـاتِ والشِّركِ والجَهْـلِ الذي هم فيـه، إلى رِحابِ العِلمِ وَنـورِ الإيمانِ، وأَنْ يُـرشِـدَهُم إلى طريقِ السَّعادةِ والفَلاحِ في الدُّنيا والآخِرَةِ.

﴿وَمـا أَرْسلْنـاكَ إلاّ رَحمـةً لِلعـالَمين﴾(الأنبيـاء - ١٠٧).

نَزَلَ الرَّسولُ (ص) من الجبلِ مُضْطَرِباً وتوجَّه إلى بيتِـهِ، وهُناكَ كـانتْ أَوَّلُ امرأةٍ آمَنَتْ بـهِ، وهي زَوجتُـهُ خَديجةُ، وأَوَّلُ رجـلٍ مَدَّ يـدَهُ إليهِ بـالبَيْعَةِ، ابنُ عَمِّـهِ الفتى عليُّ بْنُ أَبي طـالـب، الّـذي تـربّى فـي بيـتِ الرَّسولِ (ص) مُنذُ نُعومَةِ أَظْفارِهِ.

وأَنذرْ عشيرتَكَ الأَقْربينِ.

كـانَ النبيُّ (ص) حينَ يَقـومُ لِلصَّـلاةِ، يقفُ عليٌّ (ع) عنْ يَمينِهِ وتَقِفُ خَديجـةُ مِنْ وَرائِه، واسْتمـرَّ الأمرُ كذلكَ، حتّى أَمَرَ أبو طالبٍ وَلَدَه جعفرَ باتِّباعِ الرَّسولِ

(ص). ثم نَزَلَ إليهِ أَمرُ اللهِ تَعالى، بأنْ يقومَ بِدعوةِ أهلِهِ وعشيرَتِه الأقْرَبينَ إلى الإسلامِ ﴿**وأَنذِرْ عَشيرتَكَ الأقربين**﴾(الشُّعراء ـ ٢١٤).

فدعا (ص) إلى بيتِهِ ما يزيدُ على أربعينَ فَرداً منْ بني هاشمٍ، وبعدَ أنْ تناولوا الطَّعامَ، وقفَ بينَهم، وحَمِدَ اللهَ وأثنى عليهِ ثُمَّ قال: «يا بني عبدِ المطَّلب، إنّي واللهِ ما أَعلَمُ شاباً في العَربِ، جاءَ قومَهُ بِأفضلَ مِمّا جِئتُكُمْ به، إنّي قد جِئتُكُم بِخيرِ الدُّنيا والآخِرةِ، وقد أمرني اللهُ تَعالى أن أدْعُوَكُم إليه، فَأَيُّكُم يُؤازِرُني على هذا الأَمرِ، على أن يكونَ أخي وَوَصِيّي وخَليفَتي فيكم؟».

ومِنْ بينِ الحُضورِ جميعِهِم، وقفَ عليٌّ (ع) وهو ما يزالُ ابنَ عشْرِ سَنواتٍ، وأعلنَ اسْتعدادَهُ لِمُؤازِرةِ الرَّسولِ (ص). كرَّرَ الرّسولُ (ص) قولَهُ ثَلاثَ مَرّاتٍ، وكانَ الوحيدُ الّذي اسْتجابَ لهُ في المَرّاتِ الثلاثِ هوُ عليٌّ (ع).

بقيَ الرَّسولُ (ص) يدعو إلى الإسلامِ سِرّاً، لِمُدَّةِ

ثلاثِ سنواتٍ، واسْتجابَ لِدعوةِ الإيمانِ عـددٌ قَليلٌ من النّاس.

في مُواجَهَةِ الشِّركِ.

في تلكَ الأيّامِ، كانَ النّـاسُ يَفِدونَ إلى مكّـةَ من بـلادٍ وأمـاكنَ بَعيـدةٍ للحـجِّ، وكـانـوا يُحضِـرون مَعَهم بضائِعَ يَحتاجُها أهلُ مكّةَ، فيَتَّجِـرون بها مَعَهُم، وكـانَ هذا العملُ مصدَرَ رِبحٍ وفيرٍ يَجْنيهِ أثرياءُ مكّةَ، والرِّبْح هو هَمُّهُم ومِحْوَرُ تَفكيرِهم.

كانَ الرسولُ (ص) يدعو النّاسَ إلى تـركِ العاداتِ السَّيِّئةِ، كالـزِّنـا وشُـربِ الخَمـرِ ووأدِ البنـاتِ وقتلِهِمْ، وأكْـلِ مالِ اليتيمِ وأكْـلِ الميتَةِ وشَهـادةِ الزُّورِ، وغيـرِ ذلكَ من الفواحشِ. وكانَ يدعوهُم بالمقابلِ إلى الأمـرِ بـالمعـروفِ والإحسـانِ إلى الأرامـلِ واليَتـامى والمساكينِ، وصلةِ الرَّحِمِ وحُسْنِ الجِوارِ.

وكانَ (ص) يجلسُ إلى أُولئِكَ الـزُّوّارِ القادمينَ من بَعيـدٍ، ويَتَحدَّثُ إليهِم؛، ويَنصَحُهمْ بِتـركِ عبـادةِ

الأصنامِ ، التي صَنَعَها الكُفّارُ بِأيديهِم مِن الخشَبِ والحجارةِ، ونَصبوها في المسجدِ الحرامِ فَوْقَ الكَعبةِ، يَنصَحُهم بتركِ عبادَتِها لأنَّها لا تنْفَعُهم ولا تَضُرُّهُم. وأنْ يَتّجِهوا بِالعبادةِ إلى الإلهِ الواحدِ، خالقِ كُلِّ شيءٍ.

كان أثرياءُ مكّةَ يَتَساءَلون: ماذا لواسْتَمعَ النّاسُ إلى مُحمَّدٍ وتركوا عبادةَ الأصْنامِ ، إذنْ لانْقطَعَ قُدومُهم إلى مَكَّة، وانْقطَع معهم مَوْرِدُ رِزقِنا ومَصدُر أرباحِنا، لذلك شَرعوا في إعلانِ الخِصامِ الشَّديدِ لمحمَّدٍ (ص) ولِتابعيه من المسلمينَ الأوائلِ ، ورغْمَ ذلك فقد كانَ عددُ المؤمنينَ يَزدادُ يوماً عن يوم، كما كانت معاملةُ قُريْشٍ له ولأصْحابِه، تَزدادُ قسوةً ووحشِيَّةً. وكانَ مشركو قُريْشٍ يُنزِلونَ بالمُسلمينَ الأذى والضَّرَرَ، ويُوجِّهونَ لَهُمْ السِّبابَ والشَّتائِمَ، كي يمنعوا انْتِشارَ الإسلامِ بينَ النّاسِ ، غير أنَّهم لم يَجرُؤوا على توجيهِ الأذى لجميع المسلمين، لأنهم يَنتَسبونَ الى قَبائِلَ عَديدةٍ، تَحسُبُ قُريْشٌ حسابَها، وأمامَ عجْزِهِم ذاكَ، فقد تَوجَّهَ نَفَرٌ من أعْيانِهم إلى بيتِ أبي طالبٍ، عَمِّ

الرَّسولِ وحاميه، وسَيِّدِ بني هاشمٍ، وشكَوا إليه أمْرَهم مَعَ مُحمَّدٍ قائلين:

يـا أبـا طـالبٍ! إنَّ ابْنَ أخيـكَ محمـداً قـد عـابَ آلِهتَنا، وسَفَّهَ أحلامَنا وَسَخِرَ منْ عقائِـدِنا، واتَّهَم آبـاءَنا بالضَّلالِ، ونحنُ على اسْتِعدادٍ لكي نُقَدِّمَ إليـه كُلَّ مـا يَطلُبُ، لو تَرَكَ هذا الأمرَ، فإمّا أن تمنَعَه أنت، وإمّا أن تُسلِمَهُ إلينا فنرى فيهِ رأيَنا.

قـال أبو طـالبٍ: سأتحـدَّثُ إليهِ في هـذا الأمرِ. وعندما نَقَـلَ أبو طـالبٍ أقوالَ قُـريشٍ إلى النَّبيِ (ص) أجابَهُ: «واللهِ يـا عَمّ، لو وَضعـوا الشَّمسَ في يَميني، والقَمرَ في شِمالي، على أنْ أتـرُكَ هذا الأمـرَ ما تـركْتُهُ حتى يُظهِرَهُ اللهُ أوْ أهْلِكَ دونَهُ». فلمّا سمـعَ أبو طـالبٍ مقالةَ النَّبيِّ (ص) وردَّه على العرضِ الذي تقـدمتْ به قُريشٌ، أخذَ يدَه بِقوَّةٍ وحَـرارةٍ قائـلاً: وَأنا أيضـاً أُقسِمُ باللهِ، أنّي لنْ أرفعَ يديَ عنكَ، فَسِرْ في طريقِكَ.

رأى كِبـــارُ قُـريشٍ أنْ يلجـأوا إلى الخَديعـةِ والمكْرِ، بعدَ أنْ رأوْا فَشَلَ تَخطيـطِهِم، فقالـوا له: يـا

أبـا طـالبٍ،إنَّ مُحمَّداً قـد شَتَّتَ جُموعَنا وسَخِرَ منّا ومِنْ أَصنـامِنـا الّتي نَحنُ لَهـا عـابِـدون، حتّى أَغْـرى بنـا غِلْمـانَنا، وشَجَّـعَهُم على العِصيـانِ والتَّمَرُّدِ، ونحنُ لا نرى تفسيراً لِسُلوكِهِ ولا نَدري ما هُوَ غَـرَضُه. فـإنْ كانَ فَقيراً أغَنيناه، وإن كانَ يُريدُ المُلكَ والجاهَ، أَمَّرناهُ عَلينا ولهُ مِنّـا الطّاعةُ، وكلُّ ما نَـطلُبُه منـه، هو أنْ يتخلّى عن هذه الدَّعوةِ! ويتركَنا لحالِنا وأُمورِنا. لكنَّ الرَّسـولَ (ص) نـظر إلى عَمِّه وقـال: يا عَمّـاه، أنـا لا أُريـدُ من هؤلاءِ النّـاسِ شيئاً! ولا أطلُبُ منهم إلا أنْ يُؤمِنـوا باللهِ الواحدِ العظيم، ويَتْركـوا معبوداتِهم وأَصنـامَهم الحقيرةَ تلك، فـإنَّها لا تُغني عنهم شيئـاً. سمعَ رِجـالُ قُريشٍ جوابَ الرَّسولِ (ص) فامتلأُوا غَضَباً وغَيـظاً! وخَرجـوا وقد صمَّموا على أن يَستعملوا معَـهُ الشِّدَّة والقَسْوةَ منذُ ذلك اليومِ.

عَقِبَ هـذه الحادثَـةِ، ضاعفَتْ قُـريشٌ من إيذائِهـا للرَّسـولِ، وتَعذيبِهـا لأَصحابِـهِ، حتى أَنَّ بعضَ أقارِبِ النَّبيِّ (ص)، كـأبي لَهبٍ، غَدوا من أعـدى أعـدائِـه.

فكانوا يَرمونَه بالأقـذارِ، ويَسخَرون مِنهُ ويُوَجِّهـونَ إليه السِّبــابَ على مَـرأى من النّــاسِ، حتى أنَّهم اتَّهمَـوهُ بـالخَبَلِ والجُنـونِ. لكنَّهم كانـوا عبثاً يُحـاولـون، فلم يفوزوا من أفعالِهم هذه بِطائلٍ، وكم كانـوا يَتَمنَّوْنَ لـو يقتُلوه ويَتخلَّصـوا منـه، لـولا خـوفُهُم من عـزيمـةِ أبي طـالبٍ، وسيفِ حمزة، وانتقـامِ بني هـاشم. وكم من مَـرَّةٍ رسموا خُـطَطاً لقتلِه، لكنَّهم كلمـا حـاوَلـوا تنفيـذَ خُـطَطِهِم الشِّريـرةِ، كانَ اللهُ سبحـانَهُ لهم بـالمِرصـادِ، فأبطَلَ أعمالَهم وسَفَّه أحلامَهم.

أول شهادة في الإسلام.

كــانَ نصيبُ بعضِ المسلمينَ مِن الأذى قليــلاً، لِأنَّهُم ينتمــونَ إلى قَبـائِــلَ كبيـرةٍ ومشهــورة، وكــانَ المشركونَ يَخافونَ من قبـائِلِهم تِلكَ، لكِّن أكثَر أتبـاعِ الـدّينِ الإسلاميِّ، كـانوا من الفقـراءِ المستَضْعَفين، أو مِن العبيـدِ الأرِقّاءِ، فكـانَ الأذى الَّذي يَنـزِلُ بهم أقوى وأشدَّ، كبلالٍ الحَبَشيِّ، وكانَ عبداً أسودَ البَشَرةِ، فقدْ طَرَحَهُ سَيِّـدُه فوقَ الأحجـارِ الملتهبةِ تحتَ شمسِ مكَّـةَ

الحارقَةِ، كما طُرِحَتْ فوقَ صدرِه صخورٌ كَبيرةُ الحجم، وتُرِكَ ساعاتٍ يُعاني من العَذابِ والحَرِّ، والجوعِ والعَطَشِ، كانوا يَطلُبونَ منه الإبْتعادَ عنْ محمَّدٍ ودَعْوتِه. لكنَّ جوابَ بلالٍ لهم كانَ قولَه.. أَحَد، أَحَد، اللهُ واحِدٌ. فَما كانَ من المُشركينَ أخيراً إلاّ أَنْ ربَطوه بِحبلٍ. وصاروا يَجُرّونَه في أَزِقَّةِ مَكَّةَ، فوقَ الأحجارِ والرِّمالِ، لكنَّ بِلالاً كان مُسلِماً حَقّاً، ولم تكنْ شِدَّةُ العَذابِ إلا لِتزيدَهُ قُوَّةً وإيماناً.

كَما كانَ ياسِرُ وسُمَيَّةُ وابنُهُما عَمّار، من المُسلمينَ المستضْعَفين، المَحرومينَ مِمَّنْ يَحميهِم ويَدفُع الأذى عَنهُم. لذلك فقد رأَوْا من العذابِ أَشُدَّه، أمّا ياسر وسُمَيَّةُ فقد قَضَيا شهيدينِ تحتَ التَّعذيبِ. وأَمّا عَمارُ، فقد قاوَمَهم حتى اقْتَرَبَ من الموتِ، بَعَد أنْ رأى مصرَعَ أَبويه أمامَ عَيْنَيْه لكِنَّه لم يكنْ أبداً ليرتَدَّ عن شريعةِ الإسلام، وإنْ تَفَوَّهَ بكلمةِ الكُفرِ تَقِيَّةً تحتَ تأثيرِ العذاب. ﴿إلاّ من أُكرِه وقلبُهُ مُطمئِنٌّ بالإيمانِ﴾ (النحل ـ ١٠٦).

كان الرَّسولُ (ص) يرى هذه الألوانَ من العذابِ، تنزِلُ بأصحابِهِ وأحبابِه، فيَتَفَطَّرُ لهم قلبُه العَطوف، ويألَمُ لِمُصابِهم، لكنَّهُ لم يكنْ يَملِكُ منْ عِلاجٍ إلاّ الصَّبرَ الجميل.

المقاطعة

أَحَسَّ مُشركو قُريشٍ أن خُطَطَهُم لم تصلْ إلى نتيجةٍ، ورأَوْا الخطَرَ يَزدادُ عليهم بازْدِيادِ انْتِشارِ الإسلامِ، فَلجأوا إلى تدبيرٍ خَسيسٍ، بَعيدٍ عن الإنسانِيَّةِ، وقَرَّروا مُقاطعةَ المُسلمينَ، وفَرْضَ الحِصارِ الاقْتصادِيِّ عَليهم، وأصدَروا وثيقةً تتضمَّنُ أربعَ نُقاطٍ للمقاطعةِ:

١ ـ منعُ الشِّراءِ والمبيعِ منَ المسلمين.

٢ ـ مناصرةُ خُصومِ محمدٍ، والالْتزامُ بها، واجبٌ في جميعِ النزاعات.

٣ ـ لا حَقَّ لأحدٍ في الزَّواجِ منِ المسلمين أو تزويجهم.

٤ ـ يُمنع أيُّ شكلٍ من أشكالِ التعاملِ أو العلاقةِ مَعَ المُسلمين.

وعلَّقوا صحيفةَ المُقاطعةِ هذه على الكعبةِ.

لما رأى أبو طالبٍ ما وصلتْ إليهِ الحالُ، وكيفَ غَدَتْ مَعيشةُ المسلمينَ مُستحيلةً في مَكَّةَ، تقدَّمَ من ابْنِ أخيهِ، وعَرَضَ عليه أن يُغادِرَ بَنو هاشِمٍ إلى بعضِ ضواحي مكة، لِيُقيموا في وادٍ يُعرَفُ بـ «شُعْب أبي طالبٍ» وحين لمسَ قَبولاً من الرَّسولِ (ص) باقتراحِه، جَمعَ أفرادَ بني هاشِمٍ وقالَ لهم: لقد عَزَمَ محمَّدٌ على الانْتِقالِ إلى الشِّعبِ، لذا فكُلٌّ منكُم مكَلفٌ بِمُرافَقَتِه، وأنْ يكونَ له مُساعداً وظَهيراً حتى النَّفَسِ الأخيرِ.

اِمتدتْ مُقاطعةُ قُريشٍ لبني هاشمٍ ثلاثَ سَنوات، كانتْ من أَشَدِّ الفَتَراتِ قَسْوةً على المسلمينَ، وخاصَّةً من حيثُ قِلَّةُ الموادِّ الغِذائيةِ التي وصلتْ إلى حَدٍ كانَ فيه الفَردُ منهم يَنالُ حبَّةَ تَمرٍ واحدةً في اليوم، بلْ كانَتْ حبَّةُ التَّمرِ هذه تُقْسَمُ أحياناً بين اثْنَيْنِ مِنْهُم، وكان عليٌّ (ع) يأتيهِم بالطَّعامِ سِرّاً من مكة. وفي الأشهُرِ

الحُـرُمِ ، حينَ كان الأَمنُ يتـوَفَّر بِشكـلٍ أَفضَلَ، كـانَ بعضُ فِتيانِ بني هاشِمٍ يَقصُدونَ مكَّةَ لتـأمينِ بعضِ ما يلزَمُهم من حـاجياتٍ، فكـانتْ قريشٌ تُحَـرِّضُ البـاعـةَ على رفعِ أسْعارِهِم، وكانَ أبو لَهَبٍ يَصيـحُ في أسواقِ مكَّةَ قائـلاً: أيُّها النـاسُ، ارْفعُوا منْ أسعـارِكُم حتى لا يستـطيعَ المسلمـونَ شِراءَ مـا يَلزَمُهُم!! ما أشبَـهَ اليـومَ بالبارِحَـة، فَقُوى الاستكبـارِ اليومَ تعمـلُ جاهدةً على إدخـالِ المُسلمينَ في مَسالِكَ مُمـاثِلَةٍ، ولا يَـزالُ هُنـاكَ أُنــاسٌ مثــلُ أبي لَهبٍ، يَغتَنِمــونَ ظُــروفَ الحِصــارِ الاقْتِصادِيِّ، فيرفَعونَ أسعارَ بضـائِعِهم يومـاً عن يومٍ ، إنَّهم من أَمثـالِ أبي لَهبٍ، ومن السّائِـرينَ على دَرْبِهِ، وهمْ لَيْسـوا جَـديـرينَ بحـالٍ من الأحـوالِ أن يُدعَوْا بالمُؤْمِنين.

بعـد مُقاطعةٍ دامتْ ثلاثَ سَنـواتٍ دونَ طـائِـلٍ ، وحينَ ثَبَتَ لِقُـريشٍ أنَّ الحصارَ الاقتصـاديَّ بـدورِه لم يـأْتِ بنتيجَـةٍ ، ولم يَفُتَّ من عـزيمَـةِ المُسلمينَ، بـل زادَهُم إيماناً، نَدِمَ بعضُ القُرشِيّينَ على مـا أقدَمَ عليـه

قَوْمُهُم، وبدأوا شَيْئاً فشيئاً يُخَفِّفونَ الحِصارَ، حتّى انْتَهى الأمرُ بأنْ أَصْبَحَ المسْلمونَ أحراراً في المجيءِ إلى مكَّة. واسْتَطاعوا أن يَعودوا ثانيةً إلى بيوتهم، وكانَ ذلكَ بِمُعْجِزَةٍ مِنَ اللهِ تَعالى، إذْ بَعَثَ الأَرَضَةَ (وهي حَشَرةٌ صَغيرةٌ تَقْرِضُ الأخشابَ وغيرَها) إلى صحيفَةِ المُقاطعةِ، فأكلَتْ كُلَّ ما كُتِبَ فيها مِنْ كَلِماتِ الظُّلمِ والمقاطعةِ، وأبقتْ على غيرِها من الكَلِماتِ، فلمّا رأى الناسُ ذلكَ، عَرَفُوا أنَّ اللهَ سُبحانه لا يَقبَلُ بهذهِ المقاطعةِ، فمَزَّقوا الصحيفةَ وأسْلَمَ عددٌ كبيرٌ منهم.

الهجرة

بعدَ زمنٍ قصيرٍ فارقَ أبو طالبٍ عمُّ الرَّسولِ (ص)، وخديجةُ زوجتُه الحياةَ، واحداً إثْرَ الآخَرِ، فكانَ لفَقْدِهِما أسوأُ الوقعِ والأثَرِ على الرَّسولِ (ص)، وهما ظَهيراهُ وناصِراهُ، واشْتَدَّتْ بعدَ مَوْتِهما ضُغوطُ قُرَيْشٍ على المسْلمين، وبِخاصَّةٍ على رسولِ اللهِ (ص). فأمَرَ المسلمينَ أن يُهاجِرَ مَنْ يُريد الهجرةَ منهم إلى الحَبَشةِ قائلاً: «إنَّ بِها (أي الحبشةَ) مَلِكاً لا

يُظلَمُ عنده أحَدٌ، وهيَ أرضُ صِدْقٍ». فهاجَرَ فريقٌ من المسلمينَ إلى الحَبشةِ بإمرَةِ ابْنِ عمِّ الرسولِ (ص) جعفر بنِ أبي طالِب (ع).

تآمرتْ قُريشٌ سِرّاً على قتلِ النبيِّ (ص)، وفي اللَّيلةِ المُحدَّدَةِ، أخبرَ اللهُ تعالى نَبِيَّهُ بِمَكرِهِمْ، فأمَرَ (ص) عليّاً (ع) بالمبيتِ على فراشِه بعدَ أنْ أعلَمَهُ بِمكرِ قُريشٍ، سُرَّ عليٌّ عليه السلامُ لأنَّهُ سيَفدي الرَّسولَ بنفسِه، ونامَ في فراشِهِ، وخرَجَ الرَّسولُ (ص) من بينِ المتآمرينَ دونَ أنْ يَروْهُ، ولمّا اقتحموا الدّارَ مُشْرعينَ سُيوفَهم، فوجِئوا بأنَّ شاغِلَ الفِراشُ هو عليٌّ، فَأُسْقِطَ في أيديهم، وملأَهُم الغيظُ دونَ أن يَستَطيعوا مواجهَةَ سيْفِ الإمامِ (ع)، أمّا الرَّسولُ (ص) فقد أنجاهُ اللهُ من بينِ أيديهِم وأحْبَطَ مكْرَهُم.

﴿ويَمْكُرونَ ويَمْكُرُ اللهُ واللهُ خَيْرُ الماكِرينَ﴾ (الأنفال - ٣٠).

كانت هِجرةُ الرَّسولِ (ص) إلى المدينةِ المنوَّرةِ، ذاتَ أثَرٍ كَبيرٍ وأهَمِّيةٍ فائِقَةٍ، حتى اعتُبِرَتْ سنةُ الهجرةِ

بِدايةً للتّاريخِ الإسلامِيِّ، وكانَ سُكّانُ المدينةِ ينتَظِرون قُدومَ الرَّسولِ إليهم بفارِغِ الصَّبرِ، وقد خَرَجوا لاسْتِقبالِهِ بالأهازيجِ والتَّحياتِ والصَّلَواتِ، وبينَ جماهيرَ قد ملأها الحَماسُ، دخَل عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ المدينةَ. وكانَ أوَّلُ عملٍ قامَ به هو أنَّهُ أَمَرَ بِبناءِ مَسجدٍ، ليكونَ قاعدةً تنَطلِقُ منهُ دعوةُ الإسلام، وليكونَ مُنطلقاً لِوَحدةِ المُسلمينَ، وبِالتعاوُنِ والتَّكاتُفِ بينَ النّاسِ تَمَّتْ إقامُة المسجدِ بمدةٍ قَصيرة، وبدأ المُسلمونَ يجتمعونَ فيهِ كلَّ يومٍ، ليستَمِعوا إلى تعاليمِ نَبِيِّهم وإرشاداتِه.

وكانَ العملَ الثّاني للرَّسولِ (ص) أنَّه آخى بينَ المُسلمينَ، وغَدا النّاسُ الذينَ كانوا بالأمسِ القريبَ يُشهِرون السُّيوفَ على بعضِهِم، غَدَوْا بفضلِ هذا النهجِ، وقد شَبكوا الأيدي، ووقَفوا كُتلةً واحدةً لا يَشْغَلُهم سوى اليقظةِ والتَّنَبُّهِ إلى أعدائِهم، أعْداءِ الإسلامِ. وقد تمَّ تشكيلَ مجموعاتٍ منهم لتعليم القرآنِ الكريم والأمرِ بالمعروفِ والنهيِ

عن المنكرِ ففريقٌ يجلسُ إلى النّاسِ يَتحدَّثُ إليهم، وفريقٌ يَتلَقّى تعاليمَ الإسلام وأُصولَه، وآخرونَ يَمْضون مع مُعاهِديهم من المسلمين.

وقعه بدر الكبرى

كانَ الإسلامُ بهذه الطَّريقة يُحقِّقُ انتشاراً واسعاً يوماً بعد يومٍ، ويحقِّقُ المسلمونَ بالتالي مَزيداً من القُوَّةِ والقُدْرةِ، وقد تَجَلَّت هذه القدرةُ واتَّضَحَتْ تَحديداً في السَّنة الثانيةِ للهِجرة، حيثُ استطاعُ جيشُ المُسلِمينَ أن يُلحِقَ بمشركي قُريشٍ هَزيمةً مُنكَرَةً، وذلك في وَقعةِ بِدرٍ الكُبرى وقد اكتسَبَ المسلمونَ بعدَ هذه الوقْعةِ المزيدَ من المؤيدينَ والمُعاهدين، كما ازدادَ بالمُقابلِ إحساسُ زُعماءِ قُريشٍ بالخطَرِ، وقد كانوا بينَ فترةٍ وأُخرى يُجَهِّزونَ حملةً نحوَ المدينةِ، كي يُظهروا عجزَ الرَّسولِ وجَماعَتِهِ، بِكُلِّ طَريقةٍ مُمكنَةٍ. أمّا الآن، واللهُ سُبحانَهُ نَصيرٌ للمؤمِنين، فلم تَعُدْ تنفُع المشركينَ أعمالُهم، وغدا الظَّفَرُ والغَلَبَةُ حليفَيْن للمُسلمين في أكثِر حُروبِهم مع المُشرِكينَ، لِما يُقدِّمُهُ

المؤمنون من تضحيةٍ وفداء، وشيئاً فشيئاً انْعَدَمَتْ الجُرأةُ لدى قريشٍ على مواجَهةِ جُنودِ الإسلام.

صُلحُ الحُدَيْبِيَةِ

في السَّنةِ السادسةِ للهجرةِ قَرَّرَ النبيُّ (ص) أن يَتَوَجَّهَ بِصُحْبَةِ نَفَرٍ من أصحابِه لزيارةِ بيتِ اللهِ الحرامِ في مكَّة، ولما علمتْ قُريشٌ بالأمرِ أرسلَتْ وفداً كي يَطْلُبَ منه أنْ يُؤَجِّل زيارَتَه، وبعدَ مُحادثاتٍ مطوَّلَةٍ توَصَّل الرسولُ (ص) وممثلو قُريشٍ إلى اتّفاقٍ تم توقيعُه وكان مما جاءَ فيه: تتوقَّفُ الحروبُ والمنازَعاتُ بين المسلمين وقريشٍ لمدةِ عشْرِ سنواتٍ، وللمسلمينَ الحقُّ بالحجِ وزيارةِ مكَّةَ والبقاءِ فيها ثلاثَةَ أيّامٍ، وذلك اعْتباراً من العامِ القادِمِ.

انْتشارُ الإسلام

وضع هذا الاتِّفاقُ حَدّاً لاعْتداءاتِ قريشٍ على المسلمين، وهيَّأَ فُرصَةً مُناسِبةً للرَّسولِ الكريمِ كي يقوَم بِنشْرِ الدَّعوةِ وتصدير الثَّورةِ الإسلامِيَّةِ إلى أقطارٍ

أُخرى. فأرسَلَ بَرسائلَ إلى مُلوكِ وحكّامِ الأقطارِ الكَبيرةِ آنذاك، يدعوهُم فيها إلى الإسلامِ. ومِنْ أُولئِكَ الملوكِ خَسْروپَرويز ملكُ إيران، وكان شخصاً مُتَكبِّراً يملؤه الغُرور والصَّلف، فلما تلقّى كتابَ النبيِّ (ص)، كَبُرَ عليه أن يتجَرَّأَ محمدٌ ويكتبَ إليه، قبلَ أن يُبادِرَهُ هو بِالكِتابَةِ أوّلاً، وغَضِبَ غَضَباً شَديداً! فمزَّقَ الكتابَ حتّى قَبْلَ أنْ يقرَأَه، وأَمَر بطردِ مَبعوثِ النَّبيِّ (ص) من قَصرِه، وقد أضمَر في نفسِه منذُ ذلكَ اليومِ أنْ يَقتُلَ الرَّسولَ، لكنَّ الإلهَ الكبَير سُبحانَه، سُرعانَ ما هَيَّأَ لهذا المغرورِ المتعجرفِ جزاءَهُ، فلم ينقَضِ وقتٌ طَويلٌ، حتى لَقِيَ حتفَه بيدِ ابنِه.

وصلت رسَائلُ النَّبيِّ (ص) واحدةً بعدَ الأُخرى إلى بلاد الرّومِ ومِصْرَ وغيرِهما من البُلدان، فقامَ بعضُ حُكّامِ تلكَ البلادِ بالرَّدِّ على دَعوةِ النَّبيِّ (ص) رَدّاً مُؤَدَّباً لائِقاً، فالنَّجاشِيُّ مَلِكُ الحَبشةِ، بعَثَ بِرَدِّهِ إلى الرّسولِ (ص) بِكُلِّ احترامٍ وإعزازٍ، وأَرفَقَ ردَّهُ بهدايا اخْتارَها خِصّيصاً، بَعَثَ بها معَ ابنٍ له إلى

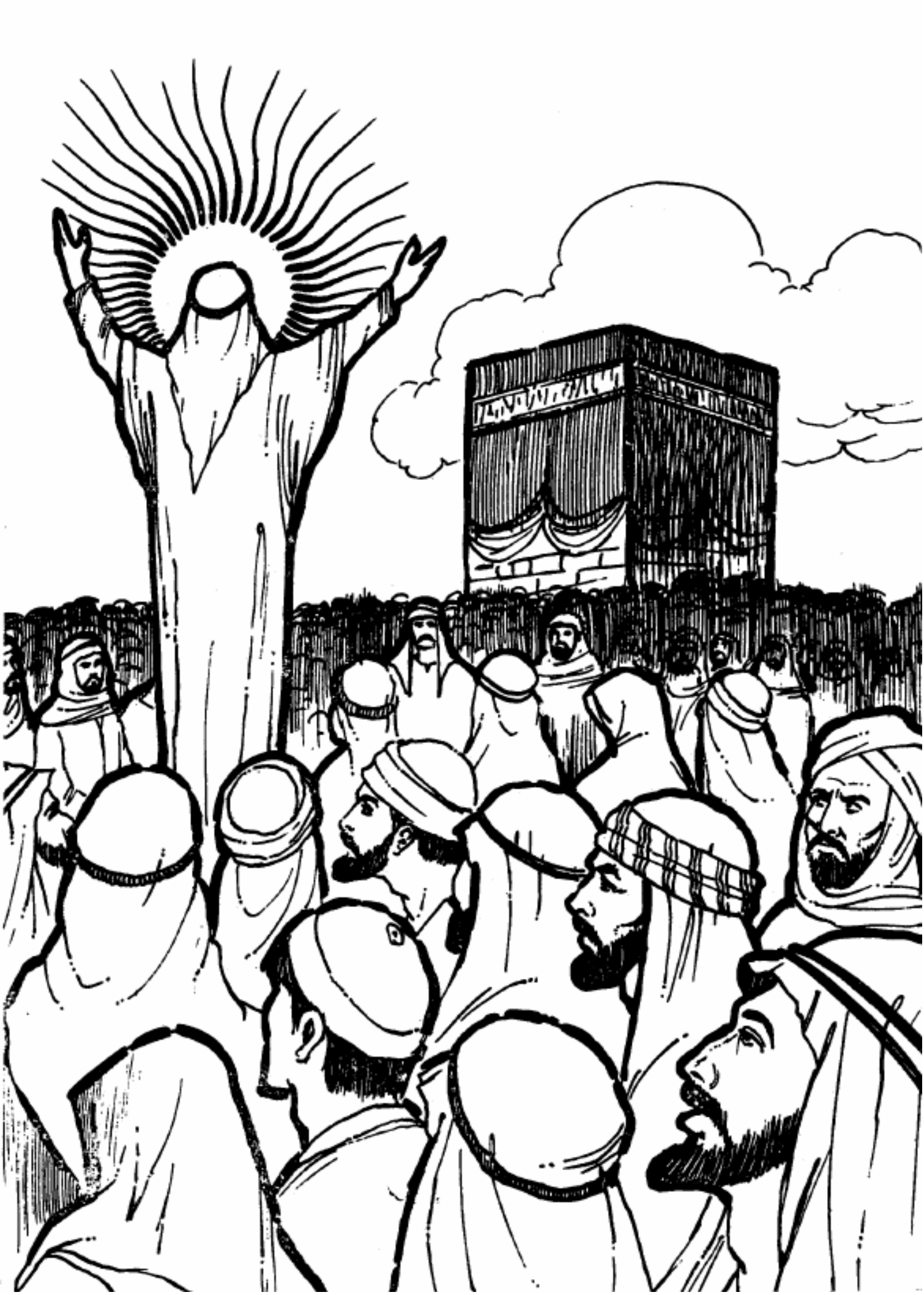

رسولِ اللهِ (ص).

ومع انْتِشارِ العقيدةِ الإسلاميَّـةِ في شَتّى المناطِقِ، اسْتجابَ الكَثيرونَ لِنداءِ الرَّسـولِ (ص)، والتْحقوا بـه أَصحاباً وتابعين.

بعد انقضاءِ عـامٍ كامـلٍ على الإتِّفاقِ الّـذي أُبْرِمَ بينَ المسلمينَ وقريْشٍ، أصدرَ النَّبِيُّ (ص) أوامِـرَه بأنَ تَتَوجَّهَ قـوافلُ المسلمين نحـوَ مكَّة. ولم يَسْتـطعْ زُعماءُ قُـريشٍ أن يقِفوا في وجـوهِهِم أو يمنَعوهُم من دخـولِ مكَّةَ، طِبقاً للاتِّفاقِ المعقودِ بينَ الطَّرفين، لكنَّهم أَمَروا سُكّـان مكةَ بِمُغـادرتِهـا والصُّعـودِ إلى الجبـالِ الواقِعَةِ حولَها. ودخلَ الرَّسـولُ (ص) مكة مُحـرِماً ومُلَبِّيـاً دعوةَ اللهِ تعـالى مَعَ أَلفين منْ أَصحـابِه، وطـافوا حـولَ بيتِ اللهِ، ثم اصْطَفّوا للصَّلاةِ والدُّعاءِ. وكانَ لهذِهِ المناسِكِ الإسـلاميةِ الجليلةِ أكبـرُ الأثرِ في نفـوسِ أهلِ مكـة، حتى أَنَّ بعضَهم أظهـرَ علنـاً تَعَلُّقَـه بـالـرَّسـولِ (ص) وشَـريعتِهِ، الأمـرُ الـذي أغضَبَ زُعمـاءَ قُـريشٍ وسبَّبَ عـدمَ ارتياحِهم فـأَصَـرّوا على ألاّ يَبقى المسلمـون في

مكَّـةَ ساعـةً واحدةً، زيـادةً على الأَيّامِ الثـلاثةِ المتَّفَقِ عليها. تضايقَ بعضُ المُسلمينَ مِنْ تَصَرُّفِ قريشٍ، لكنَّ الرسولَ (ص) والذي كان صـادقا وحـازماً في تنفيـذِ ما اتَّفَقَ عليـه مع مُعـاهـديـه، أَعـطى أوامِـرَه بـالتَّحـركِ. وبإحساسٍ غامِرٍ بالظَّفَـرِ والارْتِياحِ، تحـرَّكَ المُسلمونَ نَحـو المدينـةِ، فَقَدْ اسْتـطاعـوا أن يَجْهَـروا بقـولِ «اللهُ أكبرُ». «لا إلهَ إلاّ اللهُ»، وأنْ يُسمِعوُا النّاسَ هـذا النداءَ العظيم، بعدَ أن كانوا عاجِزينَ طيلَةَ سَبْـعِ سنواتٍ حتّى عَنْ زِيارَةِ بَيْتِ اللهِ.

فتح مكة

في السَّنـةِ الثـامِنَـةِ للهجـرةِ، نَشِبَ قِتـالٌ بينَ المُسلمينَ وجَيْشِ الرّومِ، فخَسِرَ المُسلمـونَ المعركـةَ واضْطُرُّوا للتَّراجُـعِ. وحينَ علمتْ قُـريشٌ بـانْكِسـارِ جيشِ المُسلمين، سَـوَّلَـتْ لهـم أَحـلامُهـم أنَّ قُـوَّةَ المسلمين قـد ضَعُفَتْ، وأنَّ القضَـاءَ عليهِـم أصبَـحَ سَهـلاً، فنَقضوا لـذلـك عهـدَهُم، وهـاجمـوا قبيلةً من القبائلِ المُواليةِ للمسلمين، ووقَـعَ أفرادُهـا في أيديهم

بينَ قتيلٍ وأسَير، بينمَا اسْتطاعَ البعضُ النَّجاةَ بالفـرارِ، ونقَلوا خَبـر الهُجـومِ إلى رسـولِ اللهِ (ص).اِنْـزعَـجَ الـرَّسولُ لِنَقْضِ قُـريشٍ عهدَهـا. وتعهَّـدَ لهم بِتـأديبِ عَبَـدَةِ الأَصنـامِ المـارقين. عَمَّ القلقُ قُـريشـاً لِقـرارِ الـرَّسولِ (ص) وفَـوَّضَت جماعـةً، بالتَّـوَسُّطِ معَهُ على تَجديدِ العهـدِ السّابقِ، لكنَّ رجـاءَهُم هذا قـد رُفِضَ، وعـادَ رُسُلُهم منْ مَسعاهُم خـائِبين. وفي الوقتِ الـذي رآه الرَّسولُ (ص) مُلائِماً لِخُطَطِهِ، أَعلَنَ التَّعْبِئَةَ العـامَّةَ في المدينةِ، وأَمَرَ بأنْ تُوضَعَ كافَّةُ مـداخِلِها ومخـارِجِها تحتَ المراقبةِ، وأَنْ تُضْبَطَ تَحرُّكاتُ النّاسِ بِشدَّةٍ، كي يَحـولَ دونَ وُصـولِ أَنبـاءِ التعبئَـةِ إلى قـريشٍ. وكـانَ (ص) يُـدرِكُ أنَّـهُ إنْ وُفِّقَ المسلمـون في فتـحِ مكّـة، وإرغامِ العدُوِّ على نَزْعِ سلاحـهِ، فإنَّ كثيـراً منْ أعداءِ اليومِ، يُصبحونَ مُسلمينَ غداً بتأثيـرِ تعاليمِ الإسـلامِ السَّمْحَةِ، ولتحقيقِ ذلك يَجبُ إنجازُ هذا العملِ الكبيرِ دونَ إراقةِ دِماءِ.

في العـاشِرِ منْ شهـرِ رمضانَ المُبـارِك. من السَّنةِ

الثامنةِ للهجرةِ، أَصدَرَ الرَّسولُ (ص) أوامَرِه بالتَّحرُّكِ، وَوَصلَ جُندُ الإسلامِ إلى مكانٍ قَريبٍ من مَكَّةَ ليلاً، فأقاموا مُعَسكَرَهم هُناك، وأمرَ الرَّسولُ بنيرانَ كثيرةٍ فَأُضْرِمَتْ، وكانَ أبو سُفيانَ وَعددٌ من مُرافقيه خارِجَ مكَّةَ، وإذا بِهِ يُفاجَأُ بالنّيرانِ تَشِعُّ قربَ مكَّةَ، فأخذَه العجبُ والحَيْرَةُ، وَتَسمَّرَ في مكانِه مُندَهِشاً من كثْرتِها. تَصادفَ في هذا الوقتِ مرورُ العبّاسِ عَمِّ الرّسولِ (ص) من هذا المكان، فرأى أبا سُفيانَ وناداهُ قائلاً: أيْ أبا سُفيان! أتُدِهشُك هذه النيرانُ؟ إنَّها لجيشِ مُحمَّدٍ (ص)، وقد أقاموا ينتظَرونَ الصَّباحَ ليدخُلوا مكَّة، ولن يكونَ في طاقَةِ أحَدٍ صَدُّهُم عمّا اعْتزَموا.

ارتجَف أبو سُفيانَ لدى سَماعِهِ أقوالَ العبّاسِ، وراحَ يَرجوه أن يأخذَه معه إلى الرَّسول، ناسياً صَلَفَه وكِبرِياءَه.

وبحضرةِ الرَّسولِ الأعظمِ (ص) تظاهَرَ أبو سُفيانَ بالإيمانِ، وأعلنَ إسلامَه، مُتأثِّراً مِمّا رآه من قُوَّةٍ واقْتِدارِ جَيشِ المسلمين. في حينِ رأى الرَّسولُ الكريمُ (ص)

في اسْتسْلامِ أبي سُفيانَ دونَ إراقَةِ الدِّماءِ، خَيرَ خاتِمةٍ تَحمِلُ من الفوائدِ الكثيرَ. وأصدَرَ قرارَه قائلاً: أَعْلِنْ عن لِساني لِأَهْلِ مَكَّةَ ، أَنَّ كُلَّ من دخَل المسجدَ الحرامَ، أو دخَلَ بيتَه وأَغْلَقَ بابَه، أو لجَأَ إلى بيتِ أَبي سُفيانَ، فهو آمن.

عادَ أبو سُفيانَ إلى مكةَ، ونقلَ إلى النّاسِ فيها كُلَّ ما رأى وسَمِعَ وهو يَرتَجِفُ، فَتَسارَعَ النّاسُ إلى الهَرَبِ دونَ تفكير، ولَجَأَ كُلٌّ منهم إلى ملجأٍ. وبِنداءِ اللهُ أكبرُ، دخَلَ جيشُ المُسلمينَ الظافِرُ مكَّةَ، واتجهوا شطرَ البيتِ الحرامِ ، وتقدَّمَ الرَّسولُ (ص): على ناقتِهِ، تَحُفُّ به جموعُ المسلمينَ مَنْ كُلِّ جانب، لِأَداءِ طوافِهِ حولَ بيتِ اللهِ. ولما لاحَظَ أهلُ مكَّةَ أَنَّ الرسولَ (ص) لا يلتَفِتُ إليهم، شَرَعوا يَخرُجون من بُيوتِهم بحذرٍ، ويَتجمعون قُربَ المسجدِ الحرامِ ، وبعدَ أنْ انتهى (ص) من تَحطيمِ الأصنامِ ، وقفَ عند بابِ الكعبةِ المشَرَّفَةِ، وبعد أنْ حَمِدَ اللهَ وشكرَهُ على فضلِهِ تَلا بعضاً من آياتِ القُرآنِ الكريمِ ، ثم الْتَفَتَ

إلى عَبَدَةِ الأَصنامِ قائلاً: «ما تَظُنّونَ أَنّي فاعِلٌ بِكُم»؟ قالوا بصوتٍ تخنُقُه العبراتُ ويَغلِبُ عليه الضَّعْفُ «أَخٌ كَريمٌ وابْنُ أخٍ كريمٍ»، لقد أَسَأْنا إليكَ كثيراً يا مُحمَّد، ولم نَرَ منْكَ إلاّ الخيرَ، فأنتَ أخٌ كريمٌ عَطوفٌ، ونَطلُبُ منكَ العفوَ والْغُفرانَ.

قالَ النبيُّ (ص): إنكمْ لم تُعامِلوني بالحُسنى، كما يُعاملُ المرءُ ابنَ بَلَدِهِ، لقد اتَّهمْتموني بالكَذِبِ والجُنونِ، وأخْرجْتُموني من داري وبَلَدي، ووقفْتُم مِنّي موقفَ الحربِ والخُصُومةِ.

اِذهبوا فأنتمِ الطُّلقاء

بدأ عَبَدةَ الأصنام يرتَجفون لمّا سَمِعوا هذا الكلامَ، وجفَّت حُلوقُهُم وانْعقَدَتْ أَلسِنَتُهُم من الخوفِ، وأيَقنوا أنَّ يومَ الاِنْتِقام قد أَزِفَ، وأنَّهم سَيلْقَوْنَ جميعاً جَزاءَهم، ويشرَبونَ من نفسِ الكأسِ التي جَرّعوها للرَّسولِ وأصحابِه، أذىً وتَعذيباً وإذلالاً امْتَدَّ لِسنواتٍ.

أمّا الرَّسولُ الكريمُ، والذي لم يكنْ يُفكّرُ

بالانتقامِ من أَحَدٍ، بل كـانَ وحدَه بينَ هـذه الجموعِ ، يَتَطَلَّعُ إلى مُستقبلِ الإسلامِ وصَلاحِ أمرِ المسلمين، ! فقد تابَعَ يقول: أمّا ما يعودُ إليَّ، فإنّي سَأَنسى الماضيَ وأَصفحُ عنكُم، «اِذهبوا فأنتُم الطُّلقاءُ».

لم يكن أحد من عبدة الأصنام، ينتظر أن يسمعَ ما سمِـعَ، وأَمـامَ هـذه العَظَمةِ والمحبَّـةِ والحْلِمِ ، فقـد غَمَرَهُم الإحساسُ بالخَجَلِ ، إلى جانِبِ الفرَحِ والغِبْطَةِ بعدَ أن أيَقنوا بالنَّجاةِ. وأَعلنَ أكثرُهم إسلامَهم.

بعـد أنْ أَقام النبيُّ (ص) في مكَّـةَ أيـامـاً، يُـرَتِّبُ أُمـورَها ويُنـظِّمُ شُؤونها، وبعَـد أنْ عَيَّنَ لإدارتِهـا رجـلاً يَمتازُ بالعقلِ والحزمِ ، قَفَلَ عائداً إلى المدينةِ.

بين المسلمين والروم

بعد فتح مكَّـة، أصبحَ الإسـلامُ قُوَّةً كبيـرةً، وحانَ وقتُ غُروبِ شَمسِ الطُّغيانِ، ومع انْتِشارِ الإسلامِ في الجزيرة العـربيَّةِ، وانتصـاراتِ المُسلمينَ المتواليـة في اليمنِ وحُنَيْنٍ وغيرِهمـا ، خـيَّم الـقلقُ عـلى قُـوى

الاسْتِكبـارِ، وكانَ الفُـرسُ والرّومـانُ في تلكَ الأيّـامِ، أكبـرَ دولتَيْن على وجْـهِ الأرضِ، وتحتَ تَصَـرُّفِ كُـلٍّ مِنهُما قُوَّةٌ نِظامِيَّةٌ كَبيرةٌ. كانَ الـرّومُ قد انْتَصَـروا حَديثـاً على الفرسِ، وغَدَوْا أكثَرَ إحساساً بِقُوَّتِهم وجَبَروتِهم، وإذا بِهِم يفـاجَؤونَ بِقـوَّةٍ أُخـرى تَقِفُ في وجـوهِهِم وتَتَحّداهُم، ألا وهيَ قُوَّةُ الإسلامِ.

كـانتْ قوى الـطّاغـوتِ تَخشى أكثَـر مـا تخشـاهُ، الحركاتِ الثَّوريَّةَ، وخاصَّةً ثورةَ الفِكْرِ، لـذا فقدْ صَمَّمَ المُستكِبـرون الرّومـانُ على القضاءِ على قُـوةِ الإسلامِ الوليدةِ، وبأسرعَ ما يستطيعون.

وصلتْ أخبـارُ سيرِ جيشٍ للرومِ، قِوامُهُ أربعـونَ ألفَ مُقاتلٍ، إلى المُسلمينَ، وأنَّـه بلغَ حـدودَ الشّـامِ وانْضمَّتْ إليـه بعضُ القبـائـلِ من سُكّـانِ الأطـرافِ، وصلَتْ هـذه الأخبارُ إلى المدينـةِ في وَقتٍ كانَ فيـه النّـاسُ يعانون من نُقصانِ الموادّ الغذائية، وهم لم ينجزوا بعدُ جَمعَ مَحاصيلِهم، لكنَّ رجالَ اللهِ يَعرفونَ أنَّ الذَّودَ عن حياضِ الإسلامِ، لا يَتقدَّمُ عليه أمـرٌ آخَرُ. فلم تَمَضِ

أيّامٌ على صدور أوامِرِ الرَّسول (ص) بالاسْتِعدادِ، حتى تَحرَّكَ (ص) ووَراءَهُ ثلاثون ألفاً لم يكونوا قَد أكملوا اسْتِعدادَهم بَعْدُ، في اتجاهِ الجبَهةِ، بعدَ أن تركَ عليّاً (ع) في المدينةِ ليقومَ مَقامه في حمايتِها والدِّفاعِ عنها قائلاً له: «أنتَ مِنّي بمنزلةِ هارونَ من موسى إلاّ أنه لا نَبِيَّ بعدي» وحين وُصولِهم إلى المواقِع الأَماميَّةِ، قُربَ تَبوكٍ، بعدَ أنْ تحمَّلوا المصاعَب والمشاقَّ، لم يرَوْا أثَراً لِجُنْدِ الرّومانِ، الذين كانوا قد تَقَهْقَروا داخَل حُدودِ بِلادِهم خوفاً من الهَزيمةِ امامَ جُيوشِ المسلمين الزّاحفةِ.

توقَّفَ الرسولُ ومُقاتلوه هناكَ فترةً من الوقتِ، وبعد توقيعِهِ عدداً منْ مُعاهداتِ الصداقَةِ مع القبائلِ من سُكّانِ الأطرافِ، عادَ مع جيشِهِ إلى المدينةِ، وكانَتْ أخبارُ الفتحِ قد سَبَقَتْهم إلى هُناكَ فتجَّمع أهلُها لاسْتِقبالِهم. انْتَشرتْ أخبارُ فِرارِ الرّومِ أمامَ جَيشِ المسلمينَ انْتِشاراً سرَيعاً واسعاً في كُلِّ مكانٍ، وأحَسَّتْ القَبائِلُ التي كانَ الخوفُ شاغِلَهامن قُوى

المستكبرينَ من الفُرسِ والرّومِ، أنَّ لها ظهيراً جديداً يُعَتَمُد على حِمايتهِ. فأبَرموا مع المسلمين العهودَ والمَواثيقَ. وغدتْ قُوَّةُ الإسلامِ أخطَرَ عدوٍّ للمستكبرين، وأكبرَ ظَهيرٍ للمستَضْعَفين.

إنَّ صَرَخاتِ عمارِ بنِ ياسرٍ تحتَ التَّعذيبِ، وأنينَ بِلالٍ الحبشيِّ فوقَ صُخورِ الصَّحراءِ الملتهبةِ، ودَمَ حمزَةَ الزَّكيَّ يسيلُ على أرضِ أُحُدٍ، ودِماءَ المئاتِ من الشُّهداءِ التي امْتزَجَت مع بعضِها، قَدْ آتَتْ كُلُّها ثِمارَها الآن، فأمثالُ عمارٍ في هذا الكونِ فازوا بالنَّجاةِ، وأمثالُ بِلالٍ قد وُهِبوا الخلاصَ من رِبقَةِ الأَسْرِ، والدَّمُ الطّاهرُ وثورةُ الشُّهداءِ المستمرَّةُ عَبْرَ التاريخ، فَجَّرَتْ الدَّمَ يجري في شَرايينِ أبطالِ الإسلام.

يأيُّها الرسولَ بَلِّغْ ما أُنزِلَ إليك من رَبِّك.

في السَّنةِ العاشرةِ للهجرةِ، أتى أمْرُ اللهِ تعالى إلى رسولِهِ (ص) بأن يذهَبَ للحجِّ هذا العامَ، ويُعلِنَ ذلك لسائِرِ المسلمين. واسْتِجابَةً لدعوتِه (ص) تحرَّكَ

الآلافُ من كُلِّ فَجٍّ، متَّجِهين نحوَ مكَّةَ، لِيُؤَدّوا مَناسِكَ الحجِّ بِصُحَبَةِ رسولِ الله (ص). وكانتْ مَناسِكُ الحجِّ لهذا العامِ قد بلغَتْ الغايةَ في الجلالِ، ولما انْتَهتْ وعزَمَ النّاسُ على التَّوَجُّهِ إلى مَواطِنِهم، وقَبْلَ أنْ يتفَرَّقوا كلٌّ إلى وِجهتِه، أمَرَ الرسولُ (ص) النّاسَ بالتَّوقُّفِ في مكانٍ يُدعى «غديرَ خُمّ»، ثم اعْتلى مُكاناً عالِياً هُيِّئَ له. وشرعَ يتحدثُ إليهم بأعلى صوتِه بعدَ أن حَمِد الله تعالى وأثنى عليهِ بقولِهِ: أيُّها النّاسُ، لقد دُعيتُ وسَأُلَبّي قريباً. ونزولاً عنَد أمرِ اللهِ سُبحانَه أوصيكُم فاسَتمِعوا، أيُّها الناسُ! إنّي راحلٌ من بَينِكِم، وتارِكٌ لكم وَديعَتين ثَمينتَيْن، إحداهُما القرآنُ كتابُ اللهِ، والثّانيةُ أهلُ بَيْتي، واعلموا أنَّهما لن يفترقا حتى يومِ الدّينِ. ثم أخَذَ بيدِ عليٍّ بِنِ أبي طالبٍ(ع) ورَفَعها قائلاً: «مَنْ كُنتُ مَولاهُ فهذا عَليٌّ مَولاهُ، اللّهُمَّ والِ منْ والاهُ، وعادِ منْ عاداهُ».

اِستَمعَ كلُّ منْ كانَ حاضراً إلى بَلاغِ الرَّسولِ ووَصاياهُ، وبايَعوا عليّاً كَخَليفةٍ لِرسولِ اللهِ (ص). لكنَّ

ضِعافَ الإيمانِ سُرعانَ ما يَتناسَوْنَ، وسُرعانَ ما يبتَعِدونَ عن سبيلِ اللهِ سبحانَه، ويَلْتَحِقونَ بِرَكْبِ الشَّيطانِ.

الساعات الأخيرة

مَرِضَ رسولُ اللهِ (ص) بعد رُجوعِهِ إلى المدينةِ بِقليلٍ، وكانتْ شُؤونُ أُمَّتِهِ شُغْلَهُ الشّاغلَ، حتّى وهو على فراشِ المرضِ، كانَ لا يَدَعُ فُرصةً تمر دونَ أن يُزَوِّدَ النّاسَ بموعِظَةٍ، أو يُقدِّمَ لهم نَصيحةً، كان عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يريد أن تكون تكاليفُ المسلمينَ بعد وَفاتِه واضحةً جَليةً. أما أولئكَ الذين كانت تَشْغَلُهم المناصُب والمقاماتُ الرَّفيعةُ، فكانوا يَحولونَ دونَ تحقيقِ ذلك، أُجَلْ! فإنَّ رسولنَا الكريمَ قد عانى الكثيرَ من قسوةِ أصحابِ الغاياتِ وعبيدِ المَناصِبِ، حتى في آخِرِ لَحَظاتِ حياتِهِ الكَريمةِ. وفي حينِ كانَ عليٌّ وفاطمةُ وغيرُهُم من التابِعين الأوْفياءِ، يجلِسونَ قربَ وِسادةِ الرَّسولِ الكريمِ، يَذْرِفونَ الدموعَ حُزناً عليه، كان جَماعةٌ آخَرون يَضعون الخُطَطَ، ويَتوسَّلون شتّى

أنواعِ المكْرِ والخِداعِ ، وهمْ ينتظرون وفاةَ النبيِّ (ص) حتى يُطْبِقوا بأيديهم على الخُبزِ والماءِ والمنصِبِ. إنهم أنفسُهَم أولئك الّذين سابقوا الآخرينَ يومَ «غديرِ خُمٍّ» كي يُبارِكوا لعلِيٍّ بِخلافَةِ رسَولِ الله، وقد رأينا كيف نَجَحوا في مَسْعاهُم. واسَتطاعوا أن يَخدعوا البسطاءَ من النّاسِ بأِلسنَتِهم، ويَغْسِلوا أدمِغَتَهُم، فينْسَوا كلَّ ما قالهُ رسولُ اللهِ (ص) في غديرِ خُمٍّ، وما قَدَّمَهُ من مَواعِظَ ونَصائِحَ، إنْ في المسجدِ أو على فراشِ المرَضِ ، يَنسونَ كلَّ هذا، ويستمعونَ إلى نَفَرٍ مالوا إلى الدُّنيا وباعوا أنفُسَهم للشَّيطانِ، حتى أنَّهم لم يتورَّعوا عن كَسْرِ ضِلعِ فاطمةَ عليها السَّلام، بِضعةِ الرَّسولِ (ص)، وجَعَلوا أميرَ المؤمنينَ علياً (ع) يُقيم في بيتِه سنواتٍ لا يَبْرَحُهُ، ومهَّدوا لمملكَةِ قَريشٍ ومعاويةَ ويزيدَ واليَزيديّينَ.

مضت أيّامٌ، والمدينةُ يَلُفُّها القَلقُ، ويَعُمُّها الحزنُ والأسى. كانَ العَديدُ منْ أَهلِها يتجَّمعونَ حول بيتِ النبيِّ (ص) يَذرِفونَ الدُّموعَ، ويَدعونَ الله ليلاً ونَهاراً،